الذاتية في كتاب مدني وأهوائي للطيفة الدليمي

أ.د. إشراق سامي عبد النبي
مركز دراسات البصرة والخليج العربي - جامعة البصرة - العراق
Ishraq_dr@yahoo.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/02/05	2020/02/14	2020/06/01

مُلَخَّصُ البَحْث

كتاب مدني وأهوائي للكاتبة العراقية لطفية الدليمي كتاب للرحلة وفاز على هذا الاساس بجائزة ابن بطوطة للرحلات عام 2017، وتجدر الإشارة الى ان للكاتبة باعاً طويلاً ومتميزاً في إنتاج النصوص القصصية والروائية فضلا عن الكثير من الدراسات والترجمات فيما كان هذا الكتاب الأول من نوعه الذي يحمل ميثاقاً ذاتياً يشترك فيه مع السيرة الذاتية وربما ابعد قليلاً ليشبه السيرة الروائية، لكنه سرد يمكن النظر اليه اعتمادا على المناهج السردية .
الكلمات المفتاحية: الذاتية ، الرحلة ، الميثاق السيري.

Abstract

A civil and anaerobic book for the Iraqi writer, Lutfi al-Dulaimi, a book for the trip, and won this basis the Ibn Battuta Trip Award in 2017, and it is worth noting that the writer has a long and distinguished experience in producing anecdotal and narrative texts as well as many studies and translations, while this book was the first of its kind to carry a self-pact He shares it with the biography and may be a little further to resemble the biography of the novelist, but it is a narration that can be viewed depending on the narrative approaches.
Key words: Autobiography / Journey / Siri Charter

مقدمة

صُنف كتاب مدني وأهوائي للكاتبة العراقية لطفية الدليمي كتاباً للرحلة وفاز على هذا الاساس بجائزة ابن بطوطة للرحلات عام 2017، وتجدر الإشارة الى ان للكاتبة باعاً طويلاَ ومتميزاً في إنتاج النصوص القصصية والروائية فضلا عن الكثير من الدراسات والترجمات فيما كان هذا الكتاب الأول من نوعه الذي يحمل ميثاقاً ذاتياً يشترك فيه مع السيرة الذاتية وربما ابعد قليلاً ليشبه السيرة الروائية، لكنه سرد يمكن النظر اليه اعتمادا على المناهج السردية . ويمكن ان نشيد بأصالة هذا النوع في الكتابة وتميزه في الادب العربي " ويشهد تاريخ الرحلة في الادب العربي على مراحل متعددة من نشوء ونمو وتطور هذه النصوص التي جاءت في حقول معرفية تبدأ بالتاريخ ولا تنتهي عند الأنثروبولوجيا، فنص الرحلة ومحكيها وجد قبل الرحلات " 1 . إذن هو سرد يتخذ من السفر ووصف البلدان مادته الأساسية وهي مادة حافلة بالوصف الجغرافي الذي يشكل فيما بعد معلومات تاريخية عن مناطق مختلفة من العالم تشير الباحثة رنا قباني إلى " إن العالم الاسلامي فيما القرنين السابع والرابع عشر والذي كان يتألف من قوى سياسية وعسكرية يمتد سلطانها من اسبانيا حتى الصين ،أرسل الرحالة مبعوثين ومستكشفين ليأتوه بالمعرفة " 2.

تقوم هذه الكتب على جانب كبير من المعرفة بطبائع البشر وطبيعة الجغرافية وتقاليد الناس في تلك الاصقاع التي يزورها الرحالة ويدون عنها ما رأى وسمع وما عاش في لحظات السفر تلك ، لكن ادب الرحلة ينطوي بالضرورة على جانب اخر مدهش يتعلق بالأدب فهو محمل بمجموعة من " الصور والمشاهد على نحو يحقق التأثير الوجداني، أو ينقل الأحاسيس والعواطف التي يجدها في نفسه من يجتلي تلك المشاهد والآثار والصور، وهذا البعد هو الذي يملأ النفس متعة وتأثيرا، ويجعل للرحلة سمة أدبية بدلا من أن تقف عند حد التسجيل والتدوين والجمود"3.

وهناك العديد من الدراسات التي صبت في هذا الاتجاه ووضحت معنى الادبية في نصوص الرحلة ، ولم تهمل تلك الدراسات أن الكتابة الكلاسيكية عن الرحلة كانت لها مقومات معينة اختلفت وتغيرت مع النص الحداثي الذي بنى له اسساً مغايرة تنسجم والسياق الفكري والثقافي العام للإنسان المعاصر.

فقد اتصفت الرحلة القديمة بميل الى الوصف الصادق الجلي عبر لغة جزلة تعمد الى استعمال الصور والمحسنات البلاغية فضلا عن الاستشهاد بأبيات شعرية هذا كله في اطار قصصي مشوق "4.

في كتاب (مدني واهوائي) للكاتبة العراقية ستنحو الادبية منحى اخر ، اكثر حداثة او معاصرة ولعل بروز الذات وارتفاع صوتها في السرد تعبيراًعن الفرد واحدة من أكثروسائل الحداثة تعبيراً عن الانسان وعادة ما " تتميز هذه الكتابة التي تحضر فيها ذات المؤلف بشكل صريح، ومن دون رغبة في الاختفاء بحالة سردية جديدة تعيش فيها الذات بين البينين، أو كما سماها الناقد المغربي 'رشيد بنحدو' 'هذا أنا هذا غير أنا' في محاولة منه لتحديد موضع ذات المؤلف داخل التخييل الروائي، كما ينعكس هذا الوضع على اللغة التي تعرف حالة الحضور والإضمار، وهي بذلك تمنح النص قوته التخييلية، لأن ذات المؤلف لم تسقطها في لعبة المطابقة"5.

تتشارك كل من السيرة الذاتية والرواية السيرية والرحلة ميثاقاً سردياً واضحاً يضع عقداً بين الكاتب وبين المتلقي مفاده أن ما يقرأ من أحداث قد حدثت فعلا ، وفيما تمتد مساحة السرد للرواية أو السيرة الذاتية على حياة الانسان بشكل عام يختار أدب الرحلة زاوية محددة يتخذ من خلالها منصة تعبيرية للذات وجدير بالذكر إن " إن هذا الفن الذي لازال غير خاضع لتعريف دقيق يؤطر حدوده_ ، يعد من فنون الأدب العربي والعالمي لكونه يتجه لعلاقات التفاعل بين التجربة الشخصية ومهمة الخطاب المعرفي، فبين هذا التنوع يتشكل بعده الإنساني أدبياً وفكرياً وفلسفياً كجنس إبداعي له حضوره المتميز ..إن أغلب الكتابات في هذا الحقل وإن لم تظهر تحت مسمى أدب الرحلات ، وانما كان يظهر أحيانا تحت خانة " كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السيرة الذاتية أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف "6.

مما يجعل النص الرحلي نصاً حافلاً وغنياً بتنويعات معرفية وأدبية ومستويات تركيبية متنوعة وهذا ما يجعل " دراسة أدب الرحلات تستلزم منا البحث في كل رحلة على حدة من حيث هي بناء فني وابداع ادبي ،له اسسه الخاصة، وملامحه الذاتية التي تميزه عن غيره من فنون الادب الاخرى " 7 .

ستبحث هذه الدراسة عن تجليات الكتابة الذاتية وهي كما أشرنا إحدى أهم وسائل الكتابة المعاصرة " يطغى الإخبار على سرد الرحلة القديمة والتقليديّة، ويتراجع التواصل إلى حدوده التنميطية، ويتراجع دور الكاتب والقارئ؛ فالأول مشغول بالظاهر من المشاهد، وبالعمومي من الأفكار، ولا يقترح أيّ جديد، لا على صعيد الرؤية، ولا على صعيد الموقف من العالم، والثاني محض مُستلِم، مُقِر. أما في الرحلة المعاصرة، أو في مدني وأهوائي، للطفية الدليميّ (طبع المؤسسة العربية، 2017. حائز على جائزة ابن

بطوطة للرحلة المعاصرة 2016-2017)، فالأمر مختلف إلى حد ما يبدأ الكتاب بمدخل، للكاتبة، تبيّن فيه طبيعة رحلتها، وموقع الذات والعالم فيها" 8.

بناء على ما تقدم يمكن تقسيم البحث إلى مبحثين :

الاول : التبئير من خلال اللغة في كتاب مدني واهوائي

الثاني: تجليات التبئير الذاتي في كتاب مدني واهوائي

المبحث الأول:

التبئير في اللغة في كتاب مدني واهوائي

ويعرف التبئير بكونه "الارتباط بالموقع الذي يحتله الراوي في علاقته بالشخصيات" 9.

وهناك عدة مصطلحات استعملت للتعبير عن هذه المسألة مثل وجهة النظر أو زاوية النظر أو الرؤيا ، الا ان الاخيرة (التبئر) كانت الاقرب للمفهوم النقدي لانها خالية من المحمولات النفسية والمعنوية وتشير الى تقنية فنية خالصة إذ." قسم جيرار جنيت عملية التبئير إلى ثلاثة أصناف تتحصل من مقارنة معلومات الراوي بمعلومات الشخصية التي يتناولها التبئير: 1= التبئير الصفر أو اللاتبئير؛ 2= التبئير الداخلي؛ 3= التبئير الخارجي"10.

التبئير الاول يكون مهيمناً في السرد الكلاسيكي إذ يكون الرواي عالم بكل التفاصيل صغيرها وكبيرها أما النوع الثاني فيمر فيه العالم المشاهد عبر السارد ليكون انعكاسا لرؤاه وتصوراته فيما يتبنى النوع الثالث العمل بطريقة مشابهة للكاميرا عبر التقاط المشاهد من الخارج .

ويتضح التبئير الداخلي في " استخدام ضمير المتكلم (الأنا) الذي يبرز في الخطاب الرحلي بوصفه راوياً وشاهداً مركزياً؛ فالرحالة الراوي هو الذي يقدم المشاهد والأحداث موظفاً وجهة نظره (رؤيته) الخاصة، مثلما يتم في السيرة الذاتية، وبخلاف ما يتم في الخطاب السردي الروائي الذي يمكن فيه أن يطبق السارد زاوية رؤية إحدى الشخصيات. ومع ذلك علينا المسارعة في التمييز بين السيرة الذاتية التي تتناول عادة مجمل حياة المؤلف الراوي، بينما النص الرحلي لا يتناول إلا مدة محددة من حياة المؤلف وهي المدة التي قضاها في السفر"11.

تبدا كاتبة رحلة (مدني واهوائي)سردها بهذا المقطع " إنها افتتنت منذ صباها بالكتب والخرائط. وإنها كانت تتظاهر بأنها نهر في خارطة، أو هضبة خضراء تكسوها أشجار البلوط، أو شاطئ، أو طائر غرنوق،

أو طائر رخ. وإنها كانت تختلق مدناً لا وجود لها إلا في مخيلتها تفيض بالنساء المغويات والعشاق والمتع والسحرة والمشعوذين. وإنها ظلت، على الرغم من نضجها ودخولها عالم الكبار الجاف الخالي من الحلم، متصلة بعالم المدن المختلقة عبر رحلة جوانيّة متمردة على كدر ألم الكبار، تعيش عالماً داخليّاً ثريّاً بالرؤى" 12.

تقديم يفيض بلغة ذاتية تميل نحو تصوير العالم عبر جنوح نحو الشعر وتمرر هذه البداية رسالة واضحة للمتلقي تشير إلى ان العوالم المرسومة داخل هذا العالم تخضع (لوجهة نظر ذاتية) اي انها تعد بلغة النقاد (تبئيراً داخلياً واحداً) .ومن المعروف "وكما هو الحال في أي خطاب سردي يتوزع الخطاب الرحلي على صيغة السرد وصيغة الوصف، إذ تمتزج الفقرات السردية التي يتم فيها حكي الأحداث والمغامرات المختلفة مع الفقرات الوصفية التي تقدم الأماكن والمناظر الطبيعية والناس والأشياء" 13 .

فقد كانت هذه المقدمة ساردة وواصفة في ان واحد معرفّة بالحقيقة على وفق ما تراه وتشعر به لذا فهي تسمح بمرور المعرفة من خلال تصوراتها هي ليس من وصف خارجي او حيادي اذ " تؤكد قوة بنيان العوالم المتخيلة القائمة في النفس، العائدة إلى أيام الطفولة. وفي ذلك إشارة أوليّة إلى أن سرد الرحلة سيكون ذاتياً، متصلاً بنفس الكاتبة وأحلامها" 14.

وتستمر الكاتبة في مقدمة ذاتية طويلة تقترن فيها لغتها بالخيال وبالصور المجازية معتمدة على الذات بوصفها محورا للعالم و واساسا يدور حوله كل شيء .. فتقول :

" المسافة بين الطفولة والنضج محتشدة بالخرائط والاحلام والسقطات والحكايات، مسكونة بهراء الكبار الذين غادرهم الحلم ، كنت انفصل عن الكبار ،واقفز في المتاهة ، المسافة ومضة ، المسافة خدعة ، كانت القفزة مجازفة وسن الرشد مدينة لم يكتشفها احد " 15.

كما يوضح المقتبس أن ثمة تبنياً كاملاً للغة المجازية الشعرية من قبل الساردة هذه اللغة تؤشر وبوضوح أن العالم يعاد خلقه وتصويرة ومن ثم كتابته على وفق عين الرائية (الساردة) فليست هناك اية مسافة تفصل بينها وبين النص وتختم مقدمتها بقولها :" برفقة الطيف واصلت التجوال في العالم تشردنا معا جعنا وظمئنا وارتوينا وتضافرت أحزاننا واشتبكت مباهجنا ونشواتنا ،هربنا مراراً اما خوفاً من الموت

او ازدراء لحياة مريعة ،رافقني كالقرين اللامرئي والنص اللامقروء والضمير المتخفي في وجدان امراة تحيا مرتين وتعيش حياتين :مرة في احلامها واخرى في أرض الواقع "16.

توحي هذه المقدمة التي كتبتها لطفية الدليمي لكتاب مختص بالرحلات ،توحي بانها مقدمة لرواية اذ تتظافر في صوغها القدرة اللغوية العالية مع الخيال الذي يرسم بكثير من الفن والاحساس صورا يمكن وصفها بانها مرتبطة بالذات كثيرا، فاذا ما سالنا السؤال التقليدي في مسألة التبئير وهو (من يرى؟) (ومن يتكلم ؟) وصلنا الى نتيجة مفادها انها شخصية واحدة (المبئر) والنص هو (المبأر) يكون الفرق بين التبئير الخارجي والداخلي هو فرق بالمعرفة فالخارجي على دراية بما يحيط به في موقع اعلى من النص كما يشبه ب(عين الطائر) في الوقت الذي لا يعرف المبئر الداخلي أكثر مما يراه ويشعر به وتتزامن معلوماته مع ما يرى ويشاهد ، وتعتمد حدود التبئر في الرواية على الراوي والشخصيات والعلاقة بينهما الامر مختلف قليلا في الرحلة التي هي وان اتفقنا بانها عمل سردي بالدرجة الاولى لكنها تتبنى مشروعا وصفيا في العادة "يرجع اعتبار الرحلة فنا وصفيا الى اعتماد السارد في المستوى المرجعي على المشاهدات العينية ،وهو مايعطي للرحلة مفهوم الفن البصري على مستوى الكتابة باعتباره تصوير عن طريق اللغة .17"

بعد المقدمة الشعرية هذه يجيء عنوان (مختصرات المدن) ويشي هذا العنوان بالمضمون وهو عبارة عن توصيف مختصر للمدن سنختار منه على سبيل المثال الاتي :

"فينا مدينة الموسيقى ونذر الحرب وقصر شوينبرون وندف الثلج في الربيع وعربات المقانق في الازقة المضيئة والرجال الشغوفين بالصيد والنساء الفارعات شبيهات الميوزات ربات الوحي "18.

وننقل منها ايضا : " بيروت مدينة الالهة ودوار عباد الشمس والوعود العنمة على ضجيج الطوائف وهمهمات الشعر ،بيروت التي لاتتعب من جدل ولاتغيب من الرؤيا الالتضيء حلما او تستفيق من الحلم الا لتصير اسطورة حريتنا العتيقة وسبيل رؤيتنا الملهمة طوال عقود " 19.

وتستمر في وضع مختصرات للمدن لا تستند هذه المختصرات الى وصف عيني او سرد لمعلومات تتعلق بتفاصيل تلك المدن وانما هو اختزال شعري مكثف لما تمتاز به من وجهة نظر الساردة اي تحويل المدينة الى مجموعة من الايقونات والاشارات عالية الرمزية والدلالة والاحساس وفي العادة " يقرب الرؤية في

الخطاب الرحلي من استعمالها العلم (الكاميرا) وكذا من استعمالها في الفنون التشكيلية وهو مايمكن اتخاذه تفسيرا لتوسل الكتابة الرحلية الاساليب التقنية المستخدمة في هذه الفنون "20.

استعمال الكاميرا في النص الرحلي لم يحصل في نص الكاتبة لطفية الدليمي فهو يعني ان التبئير في هذه الحالة يكون خارجي ، فالكاميرا تنقل التفاصيل مثلما هي دون ان تحملها انطباعا خاصا او احساسا معينة ،بينما تتبدى ذاتية الرؤية هنا من خلال الصور المجازية الرمزية للمدن وهي تنقل انطباع الساردة او احساسها الخاص بالمدينة ، التبئير هنا داخلي بما ، العالم يمر عبر الساردة ، العبور هنا يخضع لفلترة العقل الاحساس والتصورات الخاصة ليعيد انتاجه والتعبير عنه تعبير متفردا قد لا يكون موضع اتفاق عام ولاسيما وهو لا يحمل معلومات جغرافية او تاريخ او سكان وتضاريس لكنه رسم لوحة ذاتية تصور المدينة على انها فكرة او عطر او فن او اغنية .

في الفصل الذي يلي مختصرات المدن فصل اخر اسمه (اكتشاف السفر في قطار من بعقوبة الى بغداد) تقول فيه : "أعيش الحياة واكتبها .أحب القطارات واهابها .....أدوخ قليلا في القطار تقشر امي برتقالة وتطعمني فصوصها ، لتجنبني الدوار اغمض عيني ،انصت لصوت العجلات ،انصت لثرثرة النساء ....جربت انواع القطارات وانا وحيدة مستوحشة وقد غادرني فضول الطفولة ووجدتني رهن حاضر مخيف يتكثف فيه احساس مريع بتبدد الامكنة والناس والذكريات "21.

تستمر الكاتبة في وصف القطارات بطريقة عالية الإيحاء والتأثير اعتماد على التبئير (من الداخل) كما يعلن ذلك النص بوضوح شديد ، توحدت الشخصية التي ترى بالساردة التي تتكلم في نقل نص مبأر يرسم صورة القطار الذي يختلف الاحساس فيه باختلاف الازمنة والتبئير هنا يحمل بعدا عاطفيا وايدلوجيا خاص بالساردة . "اذا كان لكل رحلة _باعتبارها قصة سفر_ حافز ينشئها ويدفعها للتحقق ،فان هذا الحافز ينطوي على الخلفية الفكرية التي توجه رؤية الكاتب في كثير من المستويات وتسهم في تشكيل نصي للرحلة وتشكيل أخلاقي وفكري للبطل " 22.

هل يمكن أن يشكل الحافز في رحلة مدني واهوائي للطفية الدليمي اكتشاف الذات بالدرجة الاولى ويمكن أن يكون ذلك ضمن اكتشاف العالم وهذا ما اشتغلت عليه اللغة في فصل القطارات عبر التركيز على صورتها داخل وسيلة النقل هذه والاختلاف الذي يحصل لها بين زمن وآخر في ذات المكان ، وطالما شكلت القطارات إيقونة رمزية عالية الايحاء خاصة في القصة القصيرة وهي تكشف دلالات مختلفة "

وإذا كانت القطارات والمترو بنت خيال جامح، فإنها بدورها غذّت خيالًا أكثر جموحًا عند شعراء وأدباء رأوا في هذه اللقاء الكرنفالي، مناسبة يمكن تحويلها إلى متخيَّل أدبي، عناصره حالِمة بقطع المسافات وارتياد الآفاق، وأبطال يفتشون عن انتصارات، أو جنود جرحى عائدون من معارك خاسرة، أو عشاق للتوّ فارَقَ بعضهم بعضًا؛ عمّال وأرباب عمل، موظفون ومديرون، نساء ورجال وأطفال، أو غرباء يبحثون عن معنى حتى لو من خلال رحلة لا وجهة محددة لها، أو لصوص وقطاع طرق وقتلة يهندسون حِيَلًا للانقضاض على ضحاياهم "23.

وجاء توظيفه في بداية كتاب رحلي موجها للقراءة عبر اقتراح أولي يقدمه الكتاب بانه سيرة ثقافية للسفر ،رحلة القطار الذي طالما استعمل مثل شريط سينمائي يمر بسرعة يحمل الكثير من المفاجآت والاحلام والمشاعر ..القطار يشبه العمر ويستعير منه قدرته على المرور السريع مهما كانت الظروف وعلى وجود محطة للبداية وثانية للنهاية وما بينهما رحلة .

"تمنحنا رحلة القطار انفتاحا على التنوع البشري وتيسر لنا التواصل مع اشباهنا وتنسج لعيوننا الدهشة بمفاجآت الامكنة المترحلة معنا " 24.

جاء القطارات تمهيداً لمعنى الذات في هذه الرحلة وتوظيفا فنيا لها .

يدعو الادب الى خصوصية الناس ، والتركيز على الفرادة بغض النظر عن الوسيلة التي يتخذها من أجل ذلك ،وقد تجسدت هنا عبر إعلاء الانا والحديث عنها وحولها بلغة شاعرية موحية وبتبئير داخلي يعكس العالم كما يتصور ويفهم .

المبحث الثاني

تجليات التبئير الذاتي في مدني واهوائي

ويمكن رصد الأساليب الفنية والتقنية التي اعتمدتها الكاتبة لمنح نصها روحاً ذاتية عالية تعمد على وجهة نظرها هي بوصفها ذاتاً كاتبة وشخصية رئيسة في سرد يقترب من الوثائقي في الميثاق الذي يشير للقارئ ان هذه التجارب الرحلية حقيقية ومرت بها كاتبة النص فعلا ،ويفارقه _الوثائقي والواقعي _ عبر توظيف ذكي وحساس للغة والخيال .

وقد تجلت الذاتية العالية في كتابي مدني واهوائي عبر طرائق عدة منها :

توظيف قصص شخصية

وهي قصص من حياة الساردة تكون بسيطة او تمثل حادثة عابرة لكنها حقيقية وحدثت مع افراد حقيقيين وتذكر الساردة اسماءهم وتخترق هذه القصص مبنى الرحلة تعكر صفوها وتسحب البساط من حياديتها نحو الذات مثلا تقول " أزور ضريح ابن عربي في حي الصالحية على المرتفع .أهبط إلى حي ركن الدين وأمضي الى قلب دمشق .كنا ذات مؤتمر للأدباء نتجول في سوق الحميدية أنا والرحل فؤاد التكرلي والدكتور محسن الموسوي اشترينا شرائط لأغاني فيروزكانت تصدح (ع هدير البوسطة) توقفت عند بائع زهور واشتريت لي باقة من زنابق دمشق العطرة ،سالني الراحل التكرلي

لمن هذه الزهور

لي أنا

هل ثمة مناسبة لنشاركك الاحتفاء

لا أنا احتفي بنفسي لأنني راضية عنها وفخورة بها ..ضحكنا طويلاً وصار التكرلي والموسوي يتندران على امرأة تحتفي بنفسها .

عدت إلى الفندق ،وكان هناك الجواهري ووزيرة الثقافة حينها دكتورة نجاح العطار وحنا مينا والشاعران اللبنانيان الياس لحود وهنري زغيب .الكل يهذي عشقا والكل مولع بدمشق " 25.

الساردة هي صاحبة التبئير في القصة التي تدور عنها اصلا ، حتى الحوار كان عبر صوتها الذي نقل لنا المشهد بالكامل وتغير الساردة دفة التركيز فتنقلها من المدينة موضوع السرد (دمشق) الى نفسها (السيدة التي تكافئ نفسها) في مشهد متكامل الوصف والعناصر اذ تحضر فيه الشخصيات والمكان والزمان والحدث فضلا عن الحوار الذي ينقل فكرة بسيطة تدور حول الساردة ،تلتقي هذه الكتابة الرحلية مع الرواية السيرية في تلبيتها لطرائق التعبير الذاتية عبر ميثاق سيري يتيقن من خلاله القارئ ان هذه الاحداث والمشاهد تخص الكاتب بالفعل لانه اشار في بداية كتابه بان ما يكتب هو نص يقع ضمن ادب الرحلات "إن أدب الرحلات، نوع يشبه الرواية من تنوع عوالمه، ولكنه يختلف عنها من حيث تقنيات السرد التي يهيمن عنصر الزمن وتنوع إيقاعه في الرواية. وتقترب من السيرة الذاتية وأدب المذكرات من حيث تطابق الراوي والمؤلف وواقعيته"26 .

علاقتها بالشخصيات

تزخر هذه الرحلات بالكثير من اللقاءات الادبية والفنية إذ تتحدث الساردة عن شخصيات مشهورة ومعروفة التقتها خلال تجوالها في البلدان ويدور مثل هذه الوصف لتلك الشخصيات عبر التبئير الداخلي ذاته واعتمادا على علاقتها بالشخصية ، ويمكن ان نجد شخصيات اليفة ومحبوبة وشخصيات قلقلة وثالثة مكروهة ، اي ان انضباط هذه الشخصيات يقع تحت توصيفات ذاتية ايضا مثلا تقول : " استقبلتنا صديقتنا ماريان زوجة صديقنا العراقي في ميناء الاسكندرية كان لابد ان نرتاح بعض الوقت في منزل اهلها الواقع في حي كامب شيرازلنبحث عن شقة قريبة من البحر ، عائلة ماريان عائلة كوسموبو لتارية حقيقة ، والدتها مسيحية لبنانية مارونية ووالدها مسلم اسكندراني شافعي ، ماريان اللطيفة جمعت افضل مالدى والديها من سجايا ولطف ومرح وتسامح " 27 يعتمد وصف السيدة هنا على انطباع ذاتي جواني وليس وصفا خارجيا موضوعيا اي هو انطباع الساردة عنها وتصنيفها ضمن الشيخيات الاليفة .وتقول في موقع اخر : " بينما كان سعد الدين وهبة يختلس النظر الينا بنوع من الاستعراض الذكوري البائس غير ابه لوجود زوجته السيدة سميحة ايوب " 28.

سجلت هذه الملاحظة عن سعد الدين وهبة نوعا من التصنيف الذي تخضع له الشخصيات في كتاب مدني واهوائي بين عوالم الخير والشر أو اذا أردنا الدقة أكثر سيكون التصنيف بين مجموعتين الاولى (احببت) والثانية (لم احب) اي انها تقييمات انسانة ذاتية بالتأكيد يسندها الواقع ويؤكدها السلوك لكننا كمتلقين نلمس انطباعاً جاهزاً من الساردة وربما لا ننتظر في احيان كثيرة تبريرا معينا له وهذه ميزة الادب التي يختلف فيها عن الكتابة العلمية او الموضوعية اذ يرجع الى الذات بوصفها منهلا اساسيا له " ولما كان السرد وحده لا يمكن أن يجعل من عمل ما أدبا - فيجب بروز خصائص تميز السرد الأدبي عن غيره من الأعمال السردية التقريرية مثل: التاريخ الذي يهت فيه صوت الراوي أمام موضوعية الحدث وقيمته المعرفية التوثيقية؛ حيث يتراجع التخييل والتبئير أمام التقريرية، فالسرد الأدبي يقتضي بروز صوت الراوي، ودرجة التبئير، والتخييل، والحبكة، وغير ذلك من مقومات السرد؛ سواء أكان على مستوى حضور عناصر الخطاب السردي أم على مستوى تقنيات السرد " 29.

الاحالة الى ثقافة الساردة

تتناص هذه الرحلة كثيرا مع عالم ثقافي يقوم على قراءات متنوعة وثقافة الكاتبة الواسعة التي تظهر في نصوصها عبر اشارتها للأمكنة والاحساس بها ضمن ثقافتها الأصلية التي خبرتها الكاتبة تماما واستطاعت الاحساس بها والتعبير عنها ،فهي تقول في رحلتها لإيران " قرات فريد الدين العطار النيسابوري في وقت مبكر كانت طبعة الكتاب مربكة ،انفلشت اوراقها بين يدي وارهقتني قراءة صفحاتها ذات الطباعة الحجرية ،ادهشتني منظومة العرفانية الكبرى (منطق الطير) اسرني وصفه لتلك الرحلة الروحانية التي قامت بها اصناف الطير بقيادة الهدهد لبلوغ مقام طائر السيمرغ ،وعندما بلغت منتهى غايتها ادركت انها فازت بالحرية خلال مكايدات الرحلة ولم ترجع الى ارض الناس بل آثرت الفناء في لحظة الحرية والاشراق " 30

تجعل الساردة للرحلة هامشا ثقافيا عرضيا تتحدث من خلاله عن بعض النصوص المشهورة والكتاب المعروفين الذين ينتمون للمنطقة التي تزوروها ، لم يكن حديثها عموميا أو عائماً وانما ايضا بما يتفق مع معرفتها واطلاعها، اي يقع ضمن ثقافتها الذاتية ، تناقشه مرة من خلال وجهة نظرها كقارئة وتستحضره مرة اخرى من خلال وحي المكان وخياله مثلما تذكر في قولها : "خيل الي انني اسمع ابن سينا يتحدث وتلاميذه يصغون مبهورين الى حديثه عن النفس واخفاقاتها بين علو وانحدار ويقرا عليهم عينيته الشهيرة

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وصلت على كره وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

وانا في ذهولي واستمتاعي بسماع محاضرة ابن سينا افقت على نداء صديقتي وهي تدعوني لأكون معهم في الصورة امام الضريح " 31.

وكثيرة مثل هذه الالتقاطات الثقافية التي تسير بخط متواز وفعال مع السرد والوصف للكاتبة ففي مصر يكون الحديث عن نجيب محفوظ وحاراته وعبق الامكنة التي رسمها في مخيالنا وفي المانيا سيكون الحديث وافيا عن غوتة التي زارت الساردة بيته هناك وهكذا في اغلب المدن التي تحدث عنها هذا الكتاب بحث دقيق وعميق عن معنى الثقافة فيها وفي مثل هذا التركيز اعلاء لقيمة الادب والفكر والثقافة وانحياز انيق الى صفه .وكل ذلك من خلال تبئير داخلي ينقل وجهة نظر الساردة واحساسها

الذاتي به عبر ادوات متنوعة مثل السرد والحوار والوصف الذي كانت له الحصة الاكبر "ويعتبر الوصف مقوماً أساسياً في أدب الرحلات؛ حيث يطغى هذا الأسلوب على غيره من الأساليب، وقد يغرق الرحالة في الوصف المحايد إلى درجة تجعل من الرحلة تقريرا يخلو من أي لمحة شعرية، وقد يستعمل الوصف بطريقة تخييلية رائعة تجعل منه خادما للعملية السردية".32 وهذا ما دأبت عليه الكاتبة لطفية الدليمي في كتابها (مدني واهوائي ..جولات في مدن العالم) عبر استحضار لغة شعرية موحية وطريقة سردية ذاتية شرحت لنا بطريقة عرفانية _ كما يتضح في الغالب في كتابات الدليمي _ ان اكتشاف الذات وسيلة جيدة لاكتشاف العالم " فخطاب الرحلة – في الأساس- وصف لمشاهد متنوعة: أماكن، أشياء، بشر إلخ...، إلا أن المهم ليس كون الرحلة توغل في الوصف وإنما كيف جاء الوصف في خطاب الرحلة، فبعض الرحلات تجعل من الوصف قيمة لذاته؛ فيقلل من أدبيتها، وبعضها تجعل من الوصف أداة ووسيلة لوصف الأشياء والأماكن والإنسان والأحداث في إطار تفاعلي بغية كشف أبعادها الخفية؛ فيعطي الرحلة بعدها الأدبي السردي"33 .

مقاطعة السرد بمنلوج داخلي

تظهر واحدة من تجليات الذات في نصوص رحلة مدني واهوائي للكاتبة لطفية الدليمي هو في القطع لانسياب السرد او الوصف بطريقة بريختية تذكرنا بالمسافة بين المسرود وبين الكاتبة ، وهناك الكثير من الامثلة التي تكررت من حيث الطريقة والصيغة في مواضع عدة من الكتاب ومنها مثلا " ها انا المراة التي قامت من دوارها هشة ونحيلة وصعدت الى سطح السفينة نيساليا،كان الليل ازرق اسود مخيفا والنجوم تتهاوى في حضن البحر ، البحار تطلق في قلوبنا غواية الهروب الكبير والرحلات التي بلا نهايات سواء كان المغامر امراوة من ارض سومر او كان شاعرا اغريقيا ، او نحاتا فينيقا او مغامرا مصريا او اي مغامر ركب البحر وبحث عن سره وسر الكون "34.

تنسجم هذه الطريقة مع مبدا اكتشاف الذات الذي تبناه خطاب الرحلة ضمنيا ضمن فلسفة عرفانية تدعو الى تنقية وتهذيب الروح عبر مكابدات البحث والاكتشاف والتجربة لاسيما ان " المونولوج الداخلي في مختلف أشكاله وأنماطه مكون يهيمن على نص ويمكنها من مسالك جمالية وأسلوبية ووظيفية تخصص هذه البلاغة الجديدة بلاغة مضادة للسائد والمألوف في الأدب العربي عامة والروائي خاصة - التي بدأت تتأسس بداية من الستينات من خلال بعض الأعمال الروائية"35.

لايحتاج هذا النوع من الكتابة الى التاكيد على انه يحمل تبئيرا داخليا فهو عبارة عن حديث النفس مع ذاتها وحول ذاتها "لكن فعالية المونولوج الداخلي لا تقف عند هذا الحد بل تسعى إلى استحداث شكل تخييلي جديد ، باعتبار أن القارئ يجد نفسه منذ السطور الأولى داخل فكر الشخصية، والمجرى اللامنقطع لهذا الفكر هو الذي يرينا- بحكم أنه يقوم تماما مقام المحكي بحصر المعنى- ما تفعله الشخصية وما يحدث لها، فنقل الأفكار يتأسس في شكل سردي مستقل "36.

وهو فضلا عن ذلك يمنح النص تلك الطراوة في امكانية التفلت والانتقال من لحظة الى اخرى زومن احساس الى ثان بطريقة بريختية تمنح المتلقي مساحة وافرة للابتعاد قليلا عن المشهد السردي والتوقف للتامل عن بعد ، وتحت ذات الفكرة تقول الساردة : " لم اتوقف يوما عن اندهاشي بما يروقني من اشخاص وامكنة وافكار ،الدهشة كانت وستبقى دافعي للسفر والحب والقراءة واكتشاف النفوس واسرار الامكنة مرة واحدة توقفت عن الدهشة عندما كنت لاجئة وحيدة في فرنسا ، لم اعد اندهش وانا المجروحة بالعنصرية والوحدة المطلقة لكن دهشتي كانت في ابهر تجلياتها عندما زرت ايران بعد زيارتي لمصر ولبنان " 37.

الخاتمة ونتائج البحث

الرحلة نوع ادبي له جذور ضاربة في عمق التراث العربي الادبي الان طريقة كتابة الرحلة اختلفت عنها في الرحلة المعاصرة عما كانت في الادب الكلاسيكي ولعل اوضح تلك الفروقات تمثلت في جنوح الرحلة المعاصرة الى الذاتية والابتعاد قليلا عن عن الموضوعية والتوثيق الجغرافي والتاريخي ، هذه الذاتية هي التي منحت سمة الادبية لهذا النوع من الكتابة السردية ، وشكل كتاب مدني واهوائي للطفية الدليمي احد الكتب الرحلية المعاصرة التي كتبت في استجابة لشروط العصر ومابعد الحداثة ، تركزت الرحلة الاوضح عند لطفية الدليمي في البحث عن ذاتها بحثا صوفيا عرفانيا تكتشفها عبر اكتشاف العالم ولذا اتضحت الذاتية لدى الكاتبة بشكلي جلي وكان التبئير وسيلة البحث لفهم معنى الذاتية في الصوغ وطرائق تجليها في النص مع الاخذ بنظر الاعتبار خصوصية الرحلة بوصفها فناً ادبياً يقترب من السيرة فيما يخص الجانب الواقعي منه الذي يدونه الكاتب عبر تصنيفه له من الاساس بانه رحلة وايضا تداخل هذا الفن مع الكتابة السردية بمختلف اشكالها (رواية ،قصة ،مذكرات) واستعار منها بعض العناصر والاساليب الخاصة بها .

إحالات البحث

1 الرحلة في الادب التجنيس ،اليات الكتابة ،خطاب المتخيل/ الهيئة العامة لقصور الثقافة /2002 : 30

2 نفسه :31

3 مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا،سيد حامد النساج / مكتبة غريب للطباعة/القاهرة /1990 :7

4: نفسه 8.

5 سيرة الذات في الرواية من التوثيق الى المكاشفة /زهور كرام /جريدة القدس/ 21ابريل 2014.

6 الرحلة في الادب العربي : 46

7 ادب الرحلات بين الجغرافية والابداع / د.يسري عبد الغني عبد الله /مجلة عود الند /السنة التاسعة /العدد 103.

8 الرحلة وانقاذ العالم / عقيل عبد الحسين /مجلة تاتو /ملحق المدى /2017/8/7.

9 يقطين سعيد. الكلام والخبر. مقدمة للسرد العربي. المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر. ط2. المغرب. 1997

10 نظرية السرد من وجهة النظر الى التبئير /ترجمة ناجي مصطفى / منشورات الحوار الاكاديمي والجامعي / ط1/1989: 3

11 المقاربات السردية لأدب الرحلة في النقد العربي / أ.د. مسعود عمشوش/صحيفة اليوم الرابع /الموقع الالكتروني ا.http://alyoumalrabeanews.net/2018/11

12 مدني واهوائي جولات في مدن العالم /لطفية الدليمي / المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2017

13 المقاربات السردية لأدب الرحلة في النقد العربي

14 الرحلة وانقاذ العالم

15 مدني واهوائي جولات في مدن العالم /لطفية الدليمي / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / 2017: 18

16 نفسه :23

17 ادبية الخطاب في رحلة نولر الاندلس لامين الريحاني /فاطمة بوطيسو/رسالة ماجستير في جامعة منتوري قسطنينة /2011.التمهيد .

18 مدني واهوائي :24

19 نفسه :25

20 ادبية الخطاب في رحلة نولر الاندلس لامين الريحاني:

21 مدني واهوائي :27

22 ادبية الخطاب في رحلة نولر الاندلس لامين الريحاني:

23 تأملات في المترو والقطار من زوايا ثقافية واجتماعية وجمالية ملف العددان ٤٨٥ - ٤٨٦ مارس - إبريل ٢٠١٧م - كتاب الفيصل | مارس 1, 2017 | مقالات

24 مدني واهوائي :34

25 نفسه :38

26 تقنيات السرد اساس ادبية الرحلة /د.عبد العليم محمد اسماعيل علي/جائزة الطيب صالح/الخرطوم2018: 7

27 مدني واهوائي : 47

28 نفسه : 51

29 تقنيات السرد اساس ادبية الرحلة / د.عبد العليم محمد اسماعيل علي / جائزة الطيب صالح /الخرطوم 2018 : 11

30 مدني واهوائي :68

31 نفسه :79

32 تقنيات السرد اساس ادبية الرحلة / د.عبد العليم محمد اسماعيل علي / جائزة الطيب صالح الخرطوم 2018 : 20

33 نفسه : 20

34 مدني واهوائي : 45

35 المنلوج في موسم الهجرة للشمال موقع سعيد بنكراد http://saidbengrad.free.fr/al/n14/8.htm

36 نفسه د

37 مدني واهوائي : 77

مراجع البحث

ادب الرحلات بين الجغرافية والابداع / د.يسري عبد الغني عبد الله /مجلة عود الند /السنة التاسعة /العدد 103

ادبية الخطاب في رحلة نولر الاندلس لامين الريحاني

تأملات في المترو والقطار من زوايا ثقافية واجتماعية وجمالية ملف العددان ٤٨٥ - ٤٨٦ مارس - إبريل ٢٠١٧م - كتاب الفيصل | مارس 1, 2017 | مقالات

تقنيات السرد اساس ادبية الرحلة / د.عبد العليم محمد اسماعيل علي / جائزة الطيب صالح

التجنيس ،اليات الكتابة ،خطاب المتخيل/ الهيئة العامة لقصور الثقافة /2002

الكلام والخبر.سعيد يعطين / مقدمة للسرد العربي/المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر. ط2. المغرب. 1997

الرحلة وانقاذ العالم / عقيل عبد الحسين /مجلة تاتو /ملحق المدى /2017/8/7

سيرة الذات في الرواية من التوثيق الى المكاشفة /زهور كرام /جريدة القدس/ 21ابريل

مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا،سيد حامد النساج / مكتبة غريب للطباعة/القاهرة /1990

مدني واهوائي جولات في مدن العالم /لطفية الدليمي / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / 2017:

المقاربات السردية لأدب الرحلة في النقد العربي / أ.د. مسعود عمشوش/صحيفة اليوم الرابع /الموقع الالكتروني

http://alyoumalrabeanews.net/2018/11.

نظرية السرد من وجهة النظر الى التبئير/ترجمة ناجي مصطفى / منشورات الحوار الاكاديمي والجامعي / ط1/1989: